"لمـــــــــــاذا الحـــــــــرب ؟ "

لماذا يتقاتل الناس أثناء الحرب العالمية الثانية 1933م "

"سيقمونـد فرويـد"

www.arabpsynet.com/documents/MarselenaFreud.pdf

الزملاء والزميلات الأعزاء على شبكة العلوم النفسية العربية

إليكم كما وعدت مقال عالم النفس التحليلي "فرويد" حول الحرب ، الذي جاء كجواب لرسالة أرسلها له عالم الفيزياء الشهير " أنشتاين

" رسالة فرويد لأنشتاين كجواب لسؤال : " لماذا الحرب ؟

حضرة السيد أينشتاين :

عندما علمت أن في نيتك دعوتي لتبادل الآراء حول موضوع يثير اهتمامك واهتمام الآخرين ، وافقت بطيبة خاطر وتوقعت منك اختيار مشكلة تقع في تخوم المشكلات المعروفة حالياً والتي لكل واحد منا سواءً كان فيزيائياً أم عالم نفس ، أن يصل إليها بطرقه الخاصة بحيث تتفق وجهات نظرهم حولها ، ولقد فجأتني عندما طرحت عليّ السؤال التالي : ماذا يمكننا أن نفعل لنُبعد حتمية الحرب عن البشرية ؟ أسمح لنفسي بالقول أن الشعور بعدم كفاءتي وكفاءتنا أفزعتني في البداية ،لأنه بدا لي أن هذه المهمة العملية منوطة برجال الدولة . لكنني أدركت فيما بعد أنك لم تثر هذه المسألة لكونك عالماً أو فيزيائياً ، وإنما لأنك إنسان محب للبشر، استجاب لمقترحات جمعية الأمم كما استجاب مستكشف القطب (فريد جوف نانسن) الذي أخذ على عاتقه إعانة الشعوب الجائعة والنازحة من ضحايا الحرب العالمية كما أدركت أنهم يطالبونني بتقديم اقتراحات عملية بل أن أشير ببساطة إلى كيفية عرض مشكلة تفادي الحروب من وجهة نظر نفسية .

عبرت في رسالتك أيضاً عن النقاط المهمة والرئيسة حول هذا الموضوع فلم يبق لدي شيء لأضيفه ، إنني أشاطرك الرأي وأكتفي بتأكيد كل ما تقوله والتوسع به بكل ما أعرفه وأفترض معرفته ، بدأت الكلام عن

العلاقات التي تتناول القانون والسلطة . إنها بلا شك نقطة الانطلاق التي تلائم استقصائنا ، فهل أسمح لنفسي تبديل كلمة "سلطة" بكلمة "عنف" التي هي أكثر فجاجة وقسوة ؟ إن القانون والعنف في نظرنا الآن متناقضان ومن السهل البرهان على أن الواحد قد تطور انطلاقاً من الآخر . وإذا رجعنا إلى البدايات الأولى وفكرنا كيف حصلت الأمور في البداية تتوصل بسهولة إلى حل المشكلة . اعذرني إذا عرضت في سياق الرسالة أفكاراً معروفة ومعترفاً بها عالمياً وكأنها جديدة ، فالظروف تفرض على ذلك . يعدّ صراع المصالح بين الناس أمراً أساسياً يحسمه اللجوء إلى العنف وهذا ما يحصل في عالم الحيوان ولا يستطيع الإنسان أن يستثني نفسه منه إلاّ أنه – عند الإنسان – تضاف صراعات الآراء التي تبلغ في تجريدها أقصى الحدود وقد تتطلب تقنية أخرى في التحكيم . لكن هذا التعقيد سيأتي لاحقاً . إن التفوق العضلي عند قبيلة صغيرة هو الذي كان يقرر في الأصل من يحق له استملاك شيء أو من ينتظر تحقيق رغبته . وقد تدّعمت القوة العضلية بسرعة ثم استعاضوا عنها فيما بعد بالأسلحة ، والرابح هو من يملكها أو يستعملها بمهارة ، وبإدخال الأسلحة بدأ التفوق العقلي يحل محل القوة العضلية الخام ، وبقيت العناية الأخيرة من القتال نفسها حيث يرغم الجيش الموجود على خط القتال الأمامي على التخلي عن مطالبه ومعارضته للخصم بسبب الأضرار التي تكبدها ، وبسبب تعطل قوته . وبتحقيق هذا الهدف تماماً عندما يبعد العنف خصمه بشكل دائم أي عندما يقتله نجد أن الفائدة مزدوجة : لأن الخصم غير قادر على استئناف العمل الحربي من جديد ، ومصيره يثني الغير عن أن يحذو حذوه ، بيد أن قتل العدو يشبع ميلاً نزوياً يتحتم الإشارة إليه فيما بعد . قد تعارض نية القتل الاعتبار التالي : وهو إمكانية الاستفادة من العدو لمصلحتنا إذا هددنا حياته . في هذه الحالة يكفي إخضاعه بالقوة عن قتله . إنها بداية الرأفة تجاه العدو ، ويتوجب على الرابح بعد الآن أن يعلق أهمية على رغبة المنهزم الدفينة للانتقام وأن يتخلى عن جزء من أمنه الذاتي . إذن من هنا مفهوم السيادة للفريق الأقوى ، ووجود العنف الخالص أو المدعوم بالذكاء ونعرف أن هذا النمط من السيرورة قد تغير خلال التطور ، وثمة مسلك واحد وينبغي علينا إدراك أن تفوق قوة أحد الأطراف يمكن أن تتكافئ مع اتحاد عناصر الضعف (ففي الاتحاد قوة) . حيث يقضي الاتحاد على العنف ، لأن قوة أفراد الاتحاد تمثل منذ الآن القانون المتعارض مع عنف طرف واحد فقط ، ونلاحظ أن القانون هو قوة الجماعة . إن الألم يتعلق دائماً بعنف جاهز ضد أي فرد يجابهه انه يستعمل الوسائل ذاتها ويسعى وراء الأهداف نفسها ويكمن الاختلاف الوحيد في أنه لم يعد عنف الفرد هو

الذي يسيطر ، وإنما عنف الجماعة ، ولكن حتى يتم هذا الانتقال من العنف إلى القانون ، يجب أن يتوافر فيه شرط نفسي ، لذلك ينبغي أن يكون اتحاد عدة أطراف ثابتاً ودائماً . ولن يكسبوا شيئاً إذا كانت الغاية من تأسيسه محاربة موقع الطرف الوحيد المسيطر ثم انحلال عقدة اتحادهم بعيد النصر . وينزع الطرف الذي يعتبر نفسه الأقوى إلى الاستيلاء على السلطة بالقوة وتتكرر هذه اللعبة إلى ما لا نهاية ، لذا يجب دعم الجماعة باستمرار في تنظيم أمورها . وفي وضع تعليمات تتفادى تهديدات التمدد وفي اختيار هيئة مهمتها التأكد من أن الجميع يتقيد بالتعليمات والقوانين وتتحمل مسؤولية تنفيذ أعمال العنف المسموح فيها قانونياً ، ونظراً لاعترافهم بوحدة المصالح تنشأ بين أفراد المجموعة الإنسانية روابط عاطفية تجمعهم ، ومشاعر مشتركة تكمن فيها قوتهم الحقيقية .

انطلاقاً من هذه المعطيات ، نجد أن المهم منها قد تراجع رساءه عندما تغلبوا على العنف عبر انتقال السلطة إلى مجموعة أوسع من الناس حيث حافظت الروابط العاطفية على تماسك أفرادها . وكل ما تبقى ليس إلا عواقب و تكسرات . وتعد الأمور غير خطيرة ما دامت الجماعة تتألف من بعض أفراد يتساوون في القوة . تحدد قوانين هذا الاتحاد كمّ الحرية الشخصية التي يجب على الفرد أن يتخلى عنها في استعمال قوته – العنف – ليضمن أمن الحياة المشتركة . بيد أن مثل هذه الحالة من التوازن لا يمكن تصورها وإدراكها إلا نظرياً في الواقع إن الوضع يتعقد على اعتبار أن الجماعة تشتمل منذ البداية على عوامل القوة غير المتكافئة من رجال ونساء وأهل وأولاد .

وفيما بعد سيتحول المنتصرون والمهزومون بسبب الحروب والإذلال والإكراه إلى أسياد وعبيد . ويصبح حق الجماعة عندئذ تعبيراً عن توازن القوة غير المتكافئة الذي يسود بينهم وسيضع الحكام القوانين ويسنونها من أجل الفئة الحاكمة . ولن يؤمنوا للشعب إلا النذر اليسير من الحقوق . وعليه فإننا نشهد فيما يتعلق بالقانون ظهور مصدرين من اختلال النظام ومن التطور كذلك نلاحظ أولاً : محاولات الأسياد الفردية تجاوز الحدود المشروعة للجميع أي محاولات الرجوع عن سيادة القانون إلى سيادة العنف . نلاحظ ثانياً جهود المظلومين المستمرة للحصول على نفوذ أكبر وترقب اعتراف أكبر القانون بهذه التغييرات . ونلاحظ حالة هذه القوانين تسير بشكل معكوس إذ تتدرج من حق غير متساوٍ إلى حق متساوٍ للجميع . وسيكون لهذا التيار الأخير أهمية كبيرة خصوصاً إذا حصل انتقال حقيقي في توازن القوى داخل الجماعة السكانية ، لأن ذلك قد ينجم عن عوامل تاريخية مختلفة ويمكن للقانون حينئذ أن يتكيف تدريجياً مع توازن القوى الجديد أو حدوث ما يحصل غالباً حينما لا تكترث الطبقة

الحاكمة لهذه التغييرات مما يفضي إلى نشوب ثورة أو حرب أهلية أي يحدث إلغاء مؤقت للقانون وامتحان جديد للقوى ينشأ على أثرها نظام قانوني جديد . هناك مصدر قانوني آخر لا يعبر عنه إلا بشكل هادئ يتجلى في انتقاله ثقافة أفراد المجتمع إلا أنه يشكل جزءاً من ظروف لا يمكن استعراضه إلا فيما بعد . نلاحظ إذن أنه حتى في داخل الجماعة السكانية لم يستطيعوا تجنب إنهاء صراعات المصالح العنيفة . لكننا نجد أن المقتضيات وارتباط المصالح التي تتولد من المساكنة في وطن واحد تكون ملائمة كي تنهي بسرعة صراعات من هذا النوع، وفي هذه الأحوال يزيد احتمال وجود حلول سلمية بيد أن إلقاء نظرة على تاريخ الإنسانية تكشف لنا وجود سلسلة متواصلة من الصراعات بين تلك الجماعة والأخرى أو بينها وبين عدة جماعات . وبين وحدات متفاوتة الكبر مثل القطاعات المدنية . وبلاد وقبائل وامبراطوريات وغالباً ما تحسم مثل هذه الصراعات من خلال نشوء حرب لامتحان القوى، تنتهي مثل تلك الحروب إما بالنهب أو بالمذلة والإكراه والانتصار الكامل لأحد الأطراف المتخاصمة ليست حروب الغزو منوطة بحكم ذي بصيرة واحدة . فعدد من الغزوات كتلك التي شنها المغول والأتراك لم تسفر إلا عن كوارث وبالعكس فإن بعضها ساهم في تحويل العنف إلى وضع قانون لإنشاء وحدات واسعة تُمكّنها من الحؤول دون احتمال اللجوء إلى العنف حيث أصبح نظام القانون الجديد يحكم في الصراعات . هكذا أدخلت غزوات الرومان إلى بلاد المحيط المتوسط : (السلام الروماني) الثمين وتعطش ملوك فرنسا إلى التوسع لجعل بلدهم مزدهراً بوحدة السلام . ومهما بدا الأمر متناقضاً يجب أن نعترف بأن الحرب هي طريقة ملائمة ومرغوبة بشدة لتوطيد سلام دائم لأنه بمقدورها أن تنشئ وحدات واسعة تجعل من السلطة المركزية القوية الموجودة قادرة على منع حدوث حروب مستقبلية . بيد أنها لا تصلح البتة لهذا المأرب لأنه كقاعدة عامة لا يستمر نجاح الغزوات، وغالباً ما تتفكك من جديد وحدات حديثة الإنشاء لعدم تماسك أطرافها التي ضمتها الحرب بالقوة من جهة أخرى ، لم يتمكن الغزو حتى الآن إلا من تحقيق اتحادات جزئية مهما كانت واسعة النطاق / حرضت صراعاتها الغازية على اتخاذ تدابير عنيفة ضدها . وكانت خلاصة هذه الجهود الحربية كلها ، أن دخل العالم في عدة حروب صغيرة لا بل مستمرة قابلتها حروب ضخمة وإن كانت نادرة، إلا إنها مدمرة، لا بد أن النتيجة التي نصل إليها باختصار، أن هذه الطرق تُطبق في أيامنا الحاضرة . إن اتخاذ التدابير الاحترازية فعّالة لتفادي الحروب ليست ممكنة إذا لم يتفق العالم على إقامة سلطة مركزية ينقل إليها حق الاجتهاد القضائي الذي يحكم في كل

صراعات المصالح . ويجتمع هنا شرطان واضحان: 1-أن يتم تشكيل هيئة عليا وأن تمنح الصلاحيات الضرورية فعلاً 2-إن تحقق شرط واحد فقط لن يكون وقد شُكلت جمعية الأمم لتشكل هذه الهيئة بيد أنه لم يستوف الشرط الآخر . وليس لجمعية الأمم صلاحية ذاتية ولا يمكن أن تنالها إلا إذا منحها إياها أفراد الاتحاد الجديد ومختلف الدول غير أن التوقعات في هذا الاتجاه تبدو محدودة في الوقت الحاضر . ونبرهن على عدم إدراك كامل اتجاه هيئة جمعية الأمم حينما نجهل أنه نادراً ما طُرح هذا المسعى أو لم يطرح مطلقاً على هذا الصعيد في التاريخ العام . وطُرح هذا المسعى في سبيل الحصول على النفوذ بمعنى نفوذ ملزم يرتكز عادة على ملكية السلطة مستنجدين بعض المواقف المثالية .

لقد علمنا بوجود أمرين كفيلين لضمان تماسك الجماعة السكانية . أولها: كبح العنف

وثانيها: الروابط العاطفية بين أفرادها وهذا ما نسميه المماثلة في اللغة الاصطلاحية

إذا فشلت إحدى هذه العوامل يمكن للعامل الآخر عند اللزوم أن يصون الجماعة . وليس لهذه الأفكار معنى إلا إذا أفصحت عن أهمية مصالح أفرادها المشتركة . عندئذ يُطرح السؤال عن قوة الجماعة . وقد علمنا التاريخ أنهم مارسوا نفوذهم بالفعل وكانت فكرة اليونانيين/ على سبيل المثال المعبرة عن إدراكهم بكونهم من طبيعة تفوق طبيعة جيرانهم البرابرة/ قوية بما فيه الكفاية لتلطيف قانون الحرب الأخلاقي بين اليونانيين والتي تجسدت بشكل قوي في المدن اليونانية القديمة وعند العرافين وفي الألعاب . لكنها بالطبع كانت عاجزة عن تدارك النزاعات الحربية القائمة بين فئات الشعب اليوناني ولم تكن قوية كفاية لتمنع مدينة أو دولة اتحادية من التحالف مع العدو الفارسي لإلحاق الضرر بخصمه له . أما الجماعة المسيحية بقوتها لم تمنع في/ عصر النهضة/ الدولة المسيحية صغيرة كانت أم كبيرة من الاستنجاد بالسلطان في الحروب التي خاضوها ضد بعض، ولا يوجد حتى في عصرنا هذا مرأي نستطيع أن الرجوع إليه، ويكون سلطة موحدة، ومن الواضح جداً أن المثاليات الوطنية هي التي تحكم الشعوب في أيامنا هذه وهي التي تدفع إلى عمل معادٍ . فهناك أناس يتكهنون بأن الدعاية المعممة من نمط الفكر البلشفي وحده كفيل لوضع حد للحروب . في كل الأحوال ما نزلنا بعيدين عن هذا الهدف حتى يومنا هذا، وقد لا يكون قابلاً للتحقيق إلاّ بعد المرور بحروب أهلية مروعة . يبدو أن كل محاولة

لا ستبدال سلطة فكرية محكوم عليها بالفشل حالياً ، وأنه خطأ حسابي أن نعتبر أن القانون لم يكن في الأصل إلاّ عنفاً خالصاً وأنه لن نستطيع اليوم الاستغناء عن دعم العنف له . يمكنني الآن تناول شرح إحدى أبحاثك . إنك مندهش من مدى سهولة إثارة الحماس القتالي عند البشر وتفترض أن شيئاً ما يحركهم من الداخل كنزوة الكراهية والإبادة التي تستجيب إلى هذا الجنون المسيطر . من جديد لا يمكنني إلاّ أن أوافقك الرأي بدون قيد أو شرط . نحن نعتقد بوجود مثل تلك النزوات ، وقد سعينا في السنين الأخيرة تحديداً إلى دراسة مظاهرها ، فهل يمكنني أن أعرض عليك بشأن هذا جزءاً من نظريتي عن النزوات التي توصلنا إليها في التحليل النفسي بعد العديد من التردد والتريث ؟ نقر بأن النزوة عند الإنسان تتألف من نمطين :

إما أن تكون من النمط الذي يهدف إلى الحفاظ والتوحيد نسميها نزوات شبقية تأخذ معنى الايروس كما جاء في مسرحية (لوبانكية) لبلاتون أو تكون نزوات جنسية تتناسب مع مدلول واعٍ للمفهوم الشعبي عن الجنسية – وغيرها من النزوات التي تهدف إلى التدمير والقتل ونضم هذه الأخيرة تحت مصطلح نزوة عدوانية أو نزوة تدميرية .

تلاحظ أن ما عرضته ليس إلاّ تحويلاً نظرياً للتعارض العام المعروف بين الحب والكراهية الذي قد يحافظ على علاقة أولية مع الثنائي ، إزاء نفور اللذين يلعبان دوراً في مجال أبحاثك ، بناءً عليه أسمح لي : ألا تتورط بسرعة في إطلاق أحكام تقويمية حول ما هو الجيد وما هو السيئ . لا تقلّ إحدى هذه النزوات في ضرورتها عن الأخرى ومن تفاعلاتها وردات فعلها تنشأ ظواهر الحياة . إلاّ أنه يبدو أن النزوة التي تخص أحد هذين النمطين من النزوات لا يستطيع أبداً إذا جاز القول – أن يعمل بمفرده لأنه مرتبط دائماً أو كما قلنا امتزج بكمية معينة من الطاقة الأخرى التي غيرت هدفها ، أو تسمح وحدها بتحقيقه إذا اقتضى الأمر . وهكذا نجد أن نزوة الحفاظ على الذات مثلاً تعدّ من طبيعة شبقية ، بيد أنها بالطبع تحتاج إلى أن يكون تصريف النزوة العدوانية إذا أرادت عندما تبلغ هدفها ، كذلك تحتاج النزوة الغرامية الموجهة نحو مواضيع ما إلى مساعدة معينة من نزوة الاستهلاك ، هذا إذا أرادت الاستحواذ على موضوعها . وقد أعاقت الصعوبات التي واجهتنا في فصل هذين النمطين من النزوات في نوع تجلياتها كي تتعرف عليهما . إذا أردت أن تتابع معي الطريق ، اعرف أن الأعمال الإنسانية تسهل التعرف على عقدة إضافية من نمط آخر . إنه لمن النادر جداً أن يكون الفعل من فعل حركة نزوية واحدة والتي تتكون في حد ذاتها من الايروس ونزوة الدمار ، وكقاعدة عامة ، يجب أن تتوافق عدة دوافع منظمة بالطريق نفسها حتى تجعل

الفعل ممكناً . كان أحد زملائك يدعى (ج. ش. ليشتبرغ) الذي علّم الفيزياء في فترة غوبتينغن في فترة ما ، كلاسيكياً قد عرف ذلك . وقد تكمن أهميته في كونه عالم نفس أكثر من كونه فيزيائياً . وقد اخترع كوكبة دوافع قائلاً : (يمكن تصنيف الدوافع التي من أجلها نقوم بعمل ما مثل 32 مرابح ؟ وأسمائهم مكونة بطريقة مشابهة من مثل خبز – خبز – مجد أو مجد – مجد – خبز) . عندما يندفع الرجال إلى الحرب يمكن لسلسة من الدوافع الموجودة في داخلهم أن تستجيب بشكل ملائم ، سواء كانت دوافع نبيلة أم مبتذلة . فمنها ما نجاهر بها عالياً ومنها ما نسكت عليه ، وليس لدينا أي مبرر لأن نكشف عن دوافعنا كلها . ومن المؤكد أن اللذة المستمدة من العمل العدواني والتدميري تحسب من بين هذه الدوافع . فتعدد الأعمال الوحشية المرتبكة عبر التاريخ وأثناء الحياة اليومية تثبت وجودها وقوتها . ويسهل لدينا أي مبرر لأن نكشف عن دوافعنا كلها . ومن المؤكد أن اللذة المستمدة من العمل العدواني والتدميري تحسب من بين هذه الدوافع . ويسهل اندماج هذه الميول التدميرية مع غيرها من الميول الشبقية والمثالية وإشباعها . عندما نسمع أحياناً عن الفظائع التاريخية يخيل إلينا أن الدوافع المثالية كانت بمثابة حجج لمطامع تدميرية . وفي أحيان أخرى ، نعتقد أن الدوافع المثالية التي تسببت مثلاً بالأعمال الوحشية أيام المحكمة التفتيشية قد فرضت نفسها على الضمير الواعي ، وأن الدوافع التدميرية قدمت معونة لا واعية . لذا هناك احتمال لوجود الاثنين .

إنني أشعر بالحرج لأنني استغل اهتمامك الذي ينصب على كيفية تفادي الحروب على نظرياتنا . وأود الوقوف قليلا عند نزوتنا التدميرية التي لم تنل بعد قسطاً من أهميتها . ونتيجة للجهود التي بذلناها في بحثنا النظري ، توصلنا بالفعل إلى إدراك أن فعل هذه النزوة الناشطة داخل الإنسان تؤدي إلى انحلاله وإعادة الحياة إلى حالة الجمود والسكون . فهي إذا تستحق – بشكل قاطع – تسميتها بنزوة الموت ، في حين تمثل النزوات الشبقية رغبات الحياة . وتصبح نزوة الموت نزوة تدميرية ضد المواضيع باتجاهها نحو الخارج بواسطة أعضاء معينة . ويحافظ الإنسان على حياته الخاصة بتدمير حياة الآخر . إنما يبقى جزء من نزوة الموت ناشطاً داخل الإنسان ، وقد حاولنا توضيح سلسلة كاملة من الظواهر السوية والمرضية لاستبطان النزوة التدميرية . حتى أننا عهدنا إلى طريقة منحرفة لتفسير نشوء ضميرنا الأخلاقي برده إلى تحول العدوانية نحو الداخل . وتلاحظون أن الأمر بالتأكيد ليس بهذه التفاهة فإن تحقيق هذه العملية على نطاق واسع يعدُ أمراً خطيراً بصراحة . وأن تحول هذه القوى النزوي، ة إلى تدمير العالم الخارجي يريح الإنسان لما

تملكه حتماً من تأثير مفيد ليكون هذا بمثابة تبرئة بيولوجية لكل الميول المقيتة والخطيرة التي نقاومها . كما يجب أن نعترف بأنها أقرب إلى الطبيعة من مقاومتنا لها حيث يتوجب علينا أيضاً أن نجد لها تفسيراً . وقد يكون لديكم انطباع بأن نظرياتنا شبيهة بالأسطورة إجمالاً ، ولا تعد مبهجة حتى في هذه الحالات ، لكن ألم تؤدي أية معرفة بالطبيعة إلى ما يشبه الأسطورة ؟ وهل الأمر مختلف بالنسبة لكم في الفيزياء الحديثة ؟

لنتذكر مما جاء أن هدفنا هو إظهار عبثية محاولة إلغاء ميول البشر العدوانية . يُقال إنه يوجد في المعمورة بلاد ميمونة تعيش شعوبها بهناء تجهل الإكراه والعدوانية . وتقدم لهم الطبيعة بوفرة كل ما يحتاجونه ، يصعب عليّ تصديق ذلك ، وأتمنى جداً أن أعرف أكثر عن حياة هذه الشعوب السعيدة . يأمل البلشفيون كذلك أن يتمكنوا من إزالة العدوانية البشرية بضمان تعويضها بأملاك مادية وتوطيد المساواة بين أفراد المجتمع . أنني أعتبر هذا الأمر مجرد وهم ، وقد أخذ البلشفيون احتياطاتهم للتسلح وأوهموا شعبهم بوجود خطر خارجي من أجل الحفاظ على تماسك أتباعهم . على كل حال ليس المقصود كما تلاحظون محو ميل الإنسان العدواني كلياً ، بل محاولة تحاشيه حتى يفقد مسببات وجوده في الحرب

نستطيع أن نجد بسهولة صيغة لتحديد الطرق غير المباشرة للنضال ضد الحرب انطلاقاً من معتقدنا الأسطوري عن النزوات . وإذا نجم إلى الميل عن نزوة التدمير، عندها نحاول الاستنجاد بالنزوة المضادة –أي الايروس- إن كل الروابط العاطفية بين البشر تعارض الحرب ، وقد تكون هذه الروابط على نوعين : النوع الأول : وجود علاقات نزيهة كالتي نقيمها مع موضوع غرامي مجرد من غايات جنسية . وليس على التحليل النفسي ان يخجل عندما يتناول موضوع الغرام ، لأن الدين عندما يتكلم عن الأمر نفسه :(أحبب قريبك كما تحب نفسك) . يسهل طبعاً الدعوة لمثل هذا الطلب مع أنه صعب التحقيق . أما النوع الثاني : هو الرابط العاطفي الذي يتماهى مع النقاط المشتركة بين البشر ، وعليهما يرتكز القسط الأوفر من بنيان المجتمع الإنساني .

اتخذت من مقال نشرته في تجاوزات السلطة دعوةً لمقاومة الميل إلى الحرب بطريقة غير مباشرة . ان انقسام البشر إلى عناصر حاكمة وعناصر محكومة يشكل جزءاً من تبلينهم الخلقي والحتمي وتشكل هذه العناصر الأخيرة الغالبية الساحقة . لذا فهي بحاجة إلى سلطة تحسم الأمور عنها وتخضع لها على الأغلب دون قيد أو شرط . من الضروري الاهتمام أكثر من السابق بتشكيل طبقة من رجال يملكون فكراً مستقلاً وحراً . ومن

الصعب إبرهابهم ومنعهم من السعي إلى الحقيقة ، وعليهم يقع حكم العامة غير المستقلة ذاتياً ، وإن تدخل السلطات العامة وقمع الفكر الذي أعلنت الكنيسة عن تأييدها له تغني عن البرهان . يكون الوضع المثالي في وجود مجموعة من البشر أخضعت حياتها النزوية لحكم العقل المطلق . ولا شيء آخر يمكنه أن يحدث وحدة كاملة وقوية بهذا القدر ، حتى ولو تطلب منهم الأمر التخلي عن روابطهم العاطفية المتبادلة ، إنما نحن على الأرجح أمام أمل وهمي . وعن السبل الأخرى الكفيلة بمنع نشوب الحرب بطريقة غير مباشرة أكثر قابلية للاستخدام ، غير أنها لا تعد بنجاح سريع مثل الطواحين التي تطحن ببطء شديد مما يجعلنا نموت جوعاً قبل الحصول على الطحين . لاحظتم أنه لا جدوى من استشارة مُنظّر اعتزل العالم من أجل مهمات عملية طارئة . ومن الأجدر أن نبذل قصارى جهدنا في كل حالة خاصة لمواجهة الخطر بالوسائل المتاحة في هذا الظرف بيد أنني أريد أيضاً أن أعالج مسألة لم تثرها في رسالتك والتي تتطلب مني الاهتمام بشكل خاص . لماذا نحنق كثيراً على الحرب أنا وأنت والآخرون ولماذا لا نقبلها كما نقبل أموراً من حتميات الحياة الأليمة المتعددة ؟ مع أنها مطابقة للطبيعة الثابتة بيولوجياً والتي لا يمكن تجنبها تقريباً . إننا سنتلقى جواباً مفاده أن لكل إنسان حقاً على حياته الخاصة . وأن الحرب تبيد أرواحاً بشرية واعدة ، وتضع الفرد في مواقف تحط من قدره ، وتجبره على قتل أرواحاً بشرية أخرى كرهاً ، وتدمير قيماً مادية ثمينة هي ثمرة عمل الإنسان وحتى أكثر من ذلك ، نجد كذلك أن الحرب في أسلوبها الحالي لم تعد تعطي الفرصة لتحقيق المثال البطولي القديم . وإن حرباً مستقبلية بناء على تحسين وإتقان الوسائل التدميرية ، تعني إبادة أحد الخصمين أو قد يكون الخصمين معاً . كل هذا صحيح ولا نزاع فيه وإننا نعجب كيف أن العالم لم يرفض المؤسسات الحربية ، طبعاً تعتبر بعض هذه النقاط مواضيع قابلة للنقاش والمساءلة إذا كانت الجماعة لا تملك أيضاً حقاً على الفرد ، ولا ينبغي أن ندين كل أنواع الحروب بالدرجة نفسها طالما يوجد امبراطوريات ودول مستعدة لإبادة دول وامبراطوريات أخرى . لذا يتوجب على الآخرين أن يتسلحوا للحرب بلا رحمة . وسنمر مرور الكرام في حديثنا على كل هذه المواضيع ، وإن لم تكن هذه هي المناقشة التي دعوتني من أجلها . فأنا أطمح إلى شيء آخر ، واعتقد أن السبب الأول الذي يبرر حنقنا على الحرب لأنه ليس باليد حيلة . إننا مسالمون لأنه يتوجب علينا أن نكون كذلك لأسباب عضوية ، لذا يسهل علينا بعدها تبرير موقفنا بواسطة الحجج . سأكتب كلاماً غير مفهوم دون شرح إضافي إنني أفكر بالأمر التالي : منذ عهد سحيق وعملية

التطور الثقافي تنتشر بين البشرية (أعلم أن أناساً غيري يفضلون تسميتها بالحضارة) . نحن مدينون لهذه العملية بالفضل الأكبر في تفوقنا ، ويعود أيضاً القسم الأكبر من الويلات التي نعاني منها . إلاّ أن دوافعها وأصولها غامضة . ونهايتها غير أكيدة ، ويمكن كشف بعض من خصائصها بسهولة ، ربما تؤدي هذه العملية إلى انقراض الجنس البشري لأنها تمس الوظيفة الجنسية في أكثر من ناحية . ومنذ الآن تتزايد الفئات غير المثقفة والطبقات المختلفة من الشعب بقوة أكبر من الفئات المثقفة . قد تتماثل هذه العملية مع عملية تدجين بعض الأجناس الحيوانية ، فتتسبب بلا أدنى شك بتغيرات جسدية . ولم تتآلف بعد مع التصور الذي يعتبر أن التطور الثقافي هو ذلك التطور العضوي وتبدو التغيرات النفسية التي توائم التطور الثقافي واضحة ومجردة من أي التباس . وتكمن هذه التعبيرات في نقل تدريجي للأهداف النزوية ، وفي الحد من الحركات النزوية ، إن الأحاسيس التي كانت عند أجدادنا السالفين مصدر لذة باتت لا تعن لنا شيئاً ولا تطاق ، فهناك أصل عضوي لتغيرات معاييرنا الأخلاقية والجمالية والفنية ، ويبدو أن هناك خاصتين مهمتين من بين الخصائص النفسية للثقافة :

1 – التمكن العقلي الذي بدأ يسيطر على الحياة النزوية

2 – استبطان الميل إلى العدوانية مع كل ما حققته من النتائج الناجحة والخطيرة .

إلاّ أن الحرب قابلت المواقف النفسية التي فرضها علينا التطور الثقافي بضجة صارخة للغاية . لذا يتوجب علينا أن نثور عليها ، فلم نعد نتحملها أبداً ، وهو ليس رفضاً ذهنياً وعاطفياً فحسب ، بل تكمن المسألة بالنسبة إلينا نحن المسالمين في عدم تحمل بنيوي ، وفرط حساسية مضخمة إلى أقصى درجة إن صح القول . وحسب تقديري إن غضبنا تجاه التدهور التقني للحرب هو بقدر غضبنا تجاه هذه الويلات . كم من الوقت يجب علينا أن ننتظر قبل أن يصبح الآخرون أيضاً مسالمين، فهذا ما لا نستطيع الإجابة عنه ، لكن قد يكون الأمل موضوعاً وهمياً لنعتقد بأن تأثير هذين العاملين ، أي عامل المواقف الثقافية وعامل الخوف المبرر من حرب مستقبلية قد يضعان حداً للعمليات الحربية في المستقبل القريب . لكن لا يمكننا التكهن بأية وسيلة غير مباشرة أو بأي حيلة سيحصل ذلك . وبانتظار أن يتحقق هذا الأمل يمكن أن نقول لأنفسنا : إن كل الأمور التي تعمل على نشر التطور الثقافي تعمل في الوقت نفسه ضد الحرب .

أبعث لك سلامات حارة ، وأطلب منك الغفران إذا خيّب بياني أملك . – س . فرويد

د . مرسلينا شعبان حسن / سوريا

محللة نفسية

عضو المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية

mar-selena@hotmail.com

ملاحظة : " هذا المقال لفرويد من منشورات المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية " .

الديمقراطيـــــــة . . .

سـلاح أمضـى مـن السّـلاح النـووي الإسرائيلـي

www.arabpsynet.com/documents/MarselenaDemocratie.pdf

د . مرسلينا شعبان حسن / سوريا
mar-selena@hotmail.com

**** ****

قـراءة نفسيـة تحليليـة للحـدث السياسـي

" فـي مصـر ومـن قبلهـا تونـس "

www.arabpsynet.com/documents/MarselenaTnEg.pdf

د . مرسلينا شعبان حسن / سوريا
mar-selena@hotmail.com

**** ****

Translate to English
http://translate.google.com/translate_t?#
**** ****

Arabpsynet
www.arabpsynet.com
Subscribe To APN
http://www.arabpsynet.com/Subs.asp

Subscribe to APN Protected Links
SEND YOUR
Scientific CV
http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm
Subscribe to APN Editions
(APN Book, APN Journal, e.Psydict)
SEND YOUR
Scientific CV
http://www.arabpsynet.com/cv/cv.htm
Papers Summaries
http://www.arabpsynet.com/paper/PapForm.htm
Books Summaries
http://www.arabpsynet.com/book/booForm.htm
Thesis Summaries
http://www.arabpsynet.com/these/ThesForm.htm